# ذكرى شاعر البادية الشيخ محمد عبد المطلب

## (١)

للأستاذ عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الابتدائية

لَوَيْتُ زمام النفس عن سَنَن الهوى ... وخليت أتراب الهوى حيث عرجوا
ورحت إلى ما يبتنى المجـــد للفتى ... وأدلجت فى ركب العلا يوم أدلجوا
وما المجد إلا حيث حلت رباعنا ... له فى نواحيها ظلال وسجسج
إذا اجدبت أحساب قوم سما بنا ... على الناس جياش الغوارب مرتج
لنا الباذخات الشم تعلو قلالها ... على كل ما شاد الأنام وبرّجوا
سلوا الدهر عنا فى القـــديم فانما ... بأسلافنا يذكو قديما ويأرج
لهم فى نواحى كل جيل مناقب ... تحـد إذا أهل المناقب أنهجوا
إذا عرض الدنيا بنى مجد معشر ... زهاهم من الدنيـا رُواء وبهرج
فشادوا على زَيف المظاهر قوة ... يصول بهـا سيف من الغى أهوج
رفعنا منار الحق فى مدنيـــة ... سنا الحق من آفاقها يتبلج
لها فلق من جانب الشرق واضح ... على الغرب يعلو نوره المتوهج
حيـاة ورثناها بيانا مفصلا ... بهـا يفلق الذكر الحكيم ويفلج

بهذه الأبيات أيها القارئ الكريم ترى نزعة الشاعر البدوى المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب . وتتبين مذهبه فى الشعر ورأيه فى المدنية والحضارة . واعتزازه بمجد العرب وقومه . وبالحنيفية السمحة . فهو شاعر متين اللفظ . رصين الأسلوب ، ينزع إلى شعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهو لا يرى معالم تلك الحضارة وذلك الرقى ، وخوافق هذه المدنية إلا زيفا من المظاهر ، التى يسرك رداؤها ، ويسوءك ابتلاؤها ، وقد حتمها قوة يصول بها سيف من الغى أهوج ، فليس بغريب أن نرى فيه ذلك الصراع الذى شاهدناه فى أيام حياته بين الجديد والقديم ، إذ

كان ـ رحمه الله ـ خير مثال للمدرسة القديمة ، التي تشيد بذكر العرب ، وتمتدح مجد الاسلام ، وتهيب بالناس أن يرجعوا إلى تاريخ أسلافهم ، فيأخذوا منه كل ممتع وجميل . وإذا تتبعنا أسباب هذه النزعة في نفسية شاعرنا أنها ترجع إلى تربيته الأولى ، وبيئته الدينية ، وحمايته لذمار قومه . واعتزازه بمجد عروبته ، ولأنه سليل أولئك العرب الأمجاد ، فهو ذلك الشاعر المجيد ، ذو الاحساس الرقيق ، والنفس الأبية ، والحمية الاسلامية ، ينتمي إلى أسرة عربية ، وعشيرة من عشائر جهينة ، إحدى بطون قضاعة كما أن والده كان رجلا صالحاً متفقهاً متصوفا ، وديوانه المطبوع يحدثنا عن تلك النزعات ، وهذه البواعث والمؤثرات ، التي أثرت في نفس هذا الشاعر الكبير ، الذي ملأ فاه إعجابا بقومه وعشيرته ، وإذا تصفحته لا تعدم فخراً بنفسه ، جاء على أسلة لسانه ، فسطره بنانه ، فهو دائم الحنين إلى العيس والظباء ، وإلى يثرب وقباء ، والجزع وسَلْع والنقى ، ومنعرج اللوى ، والأبرق والعقيق ، على غير ما ينزع إليه غيره من الشعراء المحدثين : من ترك بكاء الأطلال ، والرسوم البوالى ، ومن جيد قوله يحكي عن نفسه في بعض قصائده ـ وقد بعثها لصديق له عام ١٩٠١ م ـ :

إلى جهينة يَنمي فرعه نسب ... له على المجد إشراف وإطلال
إذا تفرقت الأنساب فهو إلى ... صميم يعرب صعاد ونزال
وإن تقطعت الأرحام كان له ... في أهل يثرب أعمام وأخوال
إذا تسامت بأقوام مناقبهم ... سما بنا المتلدان العم والخال
من معشر في صروح العز قد نزلوا ... مذ الزمان وفي هام العلا قالوا
حيث الأنام طَغام والدنا همج ... والماجدون على الأيام أنذال
كم أركبوا من كمىّ في المغار له ... من العزيمة بتار وعسال
تمشي به المقربات الجرد معجبة ... تحت الكريم كرام الخيل تختال
ولى همامة نفس بالعلا كلفت ... قدما وقلب بأهل الفضل محلال

وكثيراً ما يتحدث إليك عن مجده وعشيرته في أي غرض من أغراض القول متى سنحت له فرصة الكلام كقوله :

وأنا ابن الصيد من أنكرنى ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أبيين كرام ضربوا فوق هامات المعالى قببا
وكفانى من فخارى نسبة جمعت فى طرفيها العربا

على أن أوصافه الجسمية ، وقسمات وجهه ، وشيم عرنينه ، وصَحَل صوته مع تفخم ألفاظه ، وقوى إنشاده ، كل أولئك يدلنا على أنه وارث مجد العرب ، وأنه الفحل المقرم ، والعذيق المرجب ، وقد قال محدثاً عن نفسه من قصيدة بعث بها إلى صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة :

ولى خلق أندى من الروض فى الضحى رقيق به أسبى الحسان العقائلا
ومن كان مثلى فى ذرا الأدب اعتلى يعاف الدنايا شيمة والرذائلا
ومن قبل آبائى على النجم خيّموا فشادوا حصوناً فوقه ومعاقلا
ورثت أبا بكر فخاراً وعزة ومن بعده أورثت فى المجد واصلا
بهاليل فى عليا جهينة أصعدوا على خير ما يحذو الأخير الأوائلا
فذرنى أسر حيث المكارم واحدلى على نغمات المجد إن كنت فاعلا

وواصل هذا هو جد الفقيد . وسبب نزوح عشائر جهينة التى منها فقيدنا ، أنها جاءت مصر زمن الفتح مددا للفاتحين ، و بعضها بعيد الفتح حينما أجلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثلث قضاعة من الشام إلى مصر ، فنزلوا الصعيد الأوسط « الأشمونين » مجاورين بطونا من قريش ، معتدين عليها ، فلما جاءت الدولة الفاطمية ظاهرت عساكرها قريشا عليهم ، وأجلوهم إلى الصعيد الأعلى بجهة سوهاى « سوهاج » وإخميم ، ثم أنف كثير منهم المقام بالصعيد ، وأصعدوا إلى النوبة وبلاد البجة ، فساكنوهم وصاهروهم . وما زالوا يصعدون فى السودان كلما نما عددهم ، حتى بلغوا بحر الغزال وودّاى غربا ، وتخوم الحبشة شرقا ، وحتى ليصح القائل أن يقول : إن جمهرة عرب السودان من قبيلة جهينة ... اهـ . من كلام الأستاذ الكبير الشيخ أحمد الأسكندرى .

ومراحل هذا الشاعر يمكن أن تقسم ثلاثا . المرحلة الأولى : مرحلة التعليم والطفولة . والمرحلة الثانية : مرحلة التدريس ، واشتغاله بالشعر وصوغ القريض ، وفيها نبه ذكره وسما شأنه . وارتفع نجمه ، وتمت صداقته لحضرة صاحب الفضيلة

الشيخ عبد الرحمن قراعة ، فاكتسب كثيراً من معارفه وأدبه وطيب أخلاقه ، وخاض غمار السياسة ، ورأى مدها وجزرها فأبلى بلاء حسنا بلسانه وقلمه .

والمرحلة الثالثة : إحالته على المعاش ، ولكنها لم تطل .

أما المرحلة الأولى : فلقد كان — رحمه الله — يقص علينا شيئا من حوادثه فيها ، فلقد أخبر أنه حفظ القرآن الكريم دون أن يبلغ العاشرة من عمره ، ثم أرسل إلى الأزهر الشريف حيث نزل فى بيت الشيخ إسماعيل أبى ضيف شيخ الطريقة الخلوتية ، فأكرم نزله لما رآه فيه من النجابة والذكاء . لبث فى الأزهر سبع سنين دأبا ثم انتظم فى سلك طلبة دار العلوم ، وكان مغرما بقراءة كتب الأدب حريصا على حفظ ما تيسر له من جيد المنظوم وبليغ المنثور ، وقد كان ذا حافظة قوية ، فتوافر على شعر الأقدمين يؤثره ويحافظ عليه ويدعو ما استطاع إليه ، فأثر ذلك فى شعره فباراهم فى منازعهم وأكثر من الغريب فى قوله . وكثرت فيه المعانى البدوية كما سنرى ذلك . وقد كان يملى علينا شعره المملوء بالغريب والحوشى ، وغرضه من ذلك إحياء ما اندثر وإنقاذ ما التقمته أمواج المحيط ، ينسج على منوال المرحوم الشيخ حمزة فتح الله . ولا يؤثر عنه فى هذه المرحلة إلا شعر قليل . ولعل ديوانه لم يحفل بذلك ، لأنه لم يدون هذا الشعر ، غير أنه ذكر فى هذا الديوان ان أول شعر أنشده فى الجمهور قصيدته البائية فى رثاء المرحوم على باشا مبارك مؤسس دار العلوم ، وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، وكان الفقيد بالفرقة الأولى من المدرسة ، ويغلب على الظن أن عمره لم يتجاوز العقد الثانى ، وأولها :

إلام بنا أيدى النوائب تلعب وحتام فى أهوالها نتقلب
تجرعنا الأحزان مر مذاقها وليس لنا من دون ذلك مهرب
كأن لم يكن للنائبات وقد نوت بنا العدر إلا ذروة المجد مرقب

ولعمرى إن هذه القصيدة على طولها تدل على علو كعب فى الأدب ، وهى عنوان لصاحبها ، وهو بعد فتى صديق الشباب ، وليس غرض هذه القصيدة بالمركب السهل الذلول فهى لا تخلو من فيلسوف كبير يطل على هام الأيام فيرى ما فيها من شهد وصاب ، فيطاوعه لسانه ببعض الحكم والمواعظ . وأغلب الظن أن له

شعرا كثيرا فى هذه المرحلة قد ضاع وليس فى ديوانه شيء منه .

وأما المرحلة الثانية - فتبتدىء باشتغاله بالتدريس بين اسوان وسوهاج ومدارس الأوقاف الملكية والقضاء الشرعى ثم دار العلوم ، وهذه المرحلة أخصب حياته الشعرية ، فلقد حكى عن نفسه ، رحمه الله ، أن قريحته ورى زندها فى اسوان لما تمتع به فى مشتاها الجميل من جو سجسج عليل ، وسماء جلتها الشمس عرائس ذات بهجة تنعكس على صفحة النيل ، ثم بعده عن وطنه « باصونة » إحدى قرى إقليم جرجا ، وما يبعثه فى النفس الشاعرة من حنين وحب وهيام . ثم لا تنس أيها القارىء الكريم صداقته للأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة الأديب المتفقه التى انعقدت من عام ١٨٩٧ وهو شاعر أديب وعالم كبير ، فكان ذلك قادحا لزناد فكره ، باعثا على نمو قريحته ، إذ وجدت فيه أدبا جما وعلما غزيرا وفضلا ونبلا ، والشعراء يتبارون فى القول إذا وجدوا الميدان واسعا وفيه تظهر المنافسة والاجادة ، ولعلك تعلم مبلغ تأثير شيخ الشعراء اسماعيل باشا صبرى فى تهذيب الشعر وصقله إذ كانت داره نادى الأدباء والشعراء ، وكان ذا أذن موسيقية تحس نبو الوتر . فلا غرو بعد هذا أن يفيض الشعر على لسان شاعرنا وينشط من عقاله ، فكان من ذلك دالية أسوان عام ١٩٠٥ ، وهى تبين مافى نفس شاعرنا وما تركته تلك البلدة الطيبة من أثر حميد :

خليلى قلبى بسلمى عميد ... ووجدى بها كل يوم يزيد
يذكرنيها إذا جن ليلى ... شمال تهب وغصن يميد
وبرق يلوح وطير ينوح ... وحاد له فى المطايا نشيد

ومنها :

أنا ابن الضراغم يوم المغا ... ر وكيف تخاف الذئاب الأسود
أنا ابن الذين إذا ما انتموا ... فجاه رفيع ومجد تليد
بنو المجد والجود فى كل جيل ... إذا أعوز الناس مجد وجود
لنا قصب السبق يوم الفخار ... كما كان آباؤنا والجدود
تراث لنا منذ عليا معد ... يدل به كهلنا والوليد

ومنها:

لعل عهود الصبا أن تعود فلله ذاك الصبا والعهود
ونقضى لأسوان حق الجوار وحق لوصافها أن يجيدوا
فقد جمعت من صروف الجمال نهاية ما يقتضيه الوجود

وكتب أيضا إلى بعض إخوانه من أسوان مشتاقا قصيدة طويلة لم يبق منها إلا ماوعته ذاكرته قال:

صب بربع البانة الأخضر بات صريع الظبى والجوذر
أرسل فيه طرفه رائدا فخانه الطرف ولم يشعر
هيهات أنسى يوم ودعتها وهى من الأتراب فى معشر

ومنها:

وقد استطرد إلى ما كان من الحرب بين الروس واليابان عام ١٩٠٥:

وأقبل اليابان فى جحفل يموج فى البر وفى الأبحر
تختال فى البحر أساطيله كجيشه فى المهمه المقفر

ولما نقل صديقه الفاضل الشيخ عبد الرحمن قراعة إلى أسوان شطر البيتين المشهورين:

« أمر على الديار ديار ليلى »

فرد عليه فضيلته مشطرا لهما أيضا مع إطالة مستملحة. ومثل هذه المداعبات الشعرية تدعو إلى النمو والاخصاب. وفى هذه المرحلة خاض غمار السياسة وسجل فى ديوانه كثيراً من الحوادث السياسية التى مرت بوادى النيل أو طافت بالبلاد الشرقية من حروب وثورات، وكان له شعر ينشد فى المحافل وخطب رنانة وتأثير كبير؛ فارتفعت منزلته فى النفوس وعرفه من كان جاهلا به، وأذكر يوم قامت أول مظاهرة للسيدات فى ميدان عابدين أنه خطبهن على جمل أورق وهو يلبس عقالا وعباءة فكان ذلك باعثاً لهن وداعياً إلى ثورتهن.

وسنعرف عند الكلام على شعره السياسى كيف سجل تلك الحوادث واحدة واحدة بشعره الخالد، وقافيته المتينة، وأسلوبه الرصين، وعباراته القوية على غير

ما نعهده فى بعض الشعراء الآخرين . ولعله انفرد بهذا الغوص فبز كثيرا منهم

وأما المرحلة الثالثة — فكانت بعد إحالته إلى المعاش واتساع مجال القول أمامه وتحريره من ربقة الوظيفة ليكون حراً يتكلم بما شاء ، وينطق بوحى ضميره ، ولئن أطال الله عمره لرأينا من درره الغوال ، ونفثات يراعته البليغة الشيء الكثير والذخيرة الأدبية الخالدة ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى فاضت روحه الطاهرة مبكيا عليه من الجميع . وكانت جريدة البلاغ الغراء ميدانا تجول فيه بحوثه ومحاوراته التى كانت بينه وبين صديقه الدكتور زكى مبارك ، فاستمتع القراء الكرام بهذا النقاش الأدبى الجميل ، وذلك الحوار الذى كان بينهما ، شارحا مذهبه فى القديم كما شرح الدكتور مذهبه فى الجديد ، وما تبع ذلك من عتب وإعتاب .

« للبحث بقية »

عيسى محمود ناصر

---

— ١٠ —

قال بعض أهل العلم : كان لنا صديق من أهل البصرة ، وكان ظريفا أديبا ، فوعدنا أن يدعونا إلى منزله ؛ فكان يمر بنا ، فكلما رأيناه قلنا له : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ فسكت إلى أن أعدّ ما نريد ، فمر بنا فأعدنا عليه ، فقال : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون .

— ١١ —

دفع أبو الطيب الطبرى خفًا له الى خفاف ليصلحه ، فكان كلما مر عليه يتقاضاه ؛ وكان الخفاف كلما رأى القاضى أخذ الخف وغمسه فى الماء وقال : الساعة الساعة . فلما طال عليه قال له : إنما دفعته إليك لتصلحه ولم أدفعه إليك لتعلمه السباحة .